الطير المهاجر

التقيت بها بعد عشرين عاما من لقائها للمرة الأولى .. لا زلت أذكرها بكل دقائقها التي كانت عليها فى اللقاء الأول .. طويلة .. رشيقة .. متناسقة القسمات .. خمرية اللون .. ينساب شعرها الأسود الفاحم خلف ظهرها ويتدلى أسفل خصرها .. متحررة من العادات والتقاليد البالية الموروثة بحكم مولدها وأقامتها بمدينة الثغر الساحلية الجميلة .. ينحسر رداؤها إلى ما فوق الركبة ليكشف عن ساقين ممتلئتين جميلتين .. هادئة فى شقاوة تسلب الألباب .

رأيتها للمرة الأولى أثناء جلوسي بالركن البعيد الهادي فى النادي الذي اشرف بعضويته .. وكانت هى الأخرى ضمن عضواته ودائمة التردد عليه .. حفرت صورتها فى مخيلتي فملامحها المميزة لا تنسى بسهولة .. دائما ما كانت تجذب انتباهي مثلي مثل سائر أعضاء النادي بل كل من يراها ..تودد إليها الجميع وكل منهم يمنى نفسه بالفوز بها .. أما هى فكانت تحتفظ بعلاقات متوازنة .. تعتبرهم جميعا أصدقاء .. وتوزع ابتساماتها ونظراتها الحالمة على الجميع دون تمييز .

هام بها حبا شاعر تربطنى به صداقة وطيدة .. وظل يتغزل فى محاسنها ويكتب فيها أشعاره .. برع فى وصف ثنايا جسدها البض .. واقترب من روحها هو يحمل قلبه المكلوم على كفيه . .

اسمعها شعره .. سمعته فى شغف مبدية إعجابها بكلماته .. تركته يمارس موهبته ولم تصده .. منعها حسها المرهف ومشاعرها الرقيقة الفياضة .. شجعه ذلك على التمادي فى التغني بحسنها وأمطرها بسيل من قصائده اعتقادا أنها تبادله حبا بحب .. طاب له ترديد اسمها .. فاسمها موسيقى تدغدغ حروفه أوتار القلوب .

كنت أحترق من الغيرة وأنا اسمع أشعار صديقي تخوض فى محاسنها وتنتهك قدسيتها .. كان قلبى يتمزق فى صمت فأنا لا أطيق أن يذكر اسمها سواى .. أغار من نسمات الهواء التى تداعب وجهها الملائكى وتتسلل إلى رئتيها وتقترب من ثنايا قلبها .. أغار من ثيابها التى تحتضن جسدها فى رقة ونعومة .. لكننى اضطررت إلى كتمان مشاعرى أمام هيام صديقى الذى لم يلحظ نظراتى الملتاعة وعواطفى المتأججة .. لم أصارحه بمكنون قلبى .. حتى لا أضيف الى مآسيه مآساه أخرى .. فهو كان يتمسك بقوة بتلابيب الحياة ليخرج من صدمة قوية تلقاها كان من الممكن أن تكون النهاية لأى شخص آخر سواه ... وكان لايزال يعانى من توابعها .. ولم تكن تلك هى الصدمة الأولى .. غفرت له وتغاضيت عنه وتركته يتمتع بأوهام حبه وبما تجود به عليه من نظره عابرة أو ابتسامة حانية ..حالت رابطة الصداقة التي تربطني به من اتخاذ موقف .. وظلت صورتها ماثلة أمامي تلازمنى فى صحوى ومنامى وكأنها تقول لى دعه وشأنه فأنا أعرف أن رقة مشاعرك ستمنعك حرمانه السعادة للحظات ربما تكون بمثابة طوق النجاة له .

مللت كبت مشاعري ووأدها فى مهدها .. فكرت مليا البوح صراحة برغبتى فى الارتباط بها .. أنها تعلم مدى حبى لها وتعلقي

بهـا وتبـادلنى نفـس مشـاعري .. سـاورنى شـك فـى إتمـام رغبتـى لا أعرف مصدره .. وانتابتني الحيرة بين الإقدام والأدبـار .. أأصـارحها وليكن ما يكون أم أظل أكتم مشاعرى داخل ثنايا قلبى .

ظللت أترقبها وانتظر قدومها وأنا قـابع فـى مكـانى بـالركن البعيد الهادي .. ظل مكانـها المفضل خاويا الا من أنـاس آخـرين يشـغلونه .. طال ترقبى بقدر مـا طـال غيابها .. علمت أخيرا أنـه تـم عقد قرانـها علـى شـاب عربـى وطـارت معـه إلـى قطـره العربـى .. كانـت فجيعتـى قاسية .. لعنت التردد الذى أضاعها منى .. وكان الفراق المر الأليم.. وتمنيـت لهـا السـعادة مـع مـن اختـاره قلبهـا.. وتركـت قلبـى الـدامى يواصل نزيفه وأنا أستمتع بحبى الـواهم برفقـة صديقى الشـاعر الـذى ساء حاله واعتلت صحته وخطا عدة خطوات فـى طريقـة للرحيـل مـن دنيا الفنـاء إلى الحياة الأبدية .

عاد الطير المهاجر إلى موطنه الأصلي .. ورأيتهـا مـرة ثانيـة .. عادت من الغربة التى دامت أكثر من عقدين من الزمـان .. كنـت علـى يقين أننى سأراها والتقى بها دون أن أدرى سبب يقينى هذا .. أطلت النظـر اليهـا .. خشـيت ان تلتهمهـا نظراتـى .. ملامحهـا هـى نفـس الملامح التى رأيتها عليها فى المرة الأولى ولكن أتضـحت معالمهـا .. ازدادت نضـجا وبهـاء .. طغـت أنوثتهـا تتحـدى كـل رجـال العـالم .. احتشم ملبسها واحتوى جسدها من أعلاه إلى أدنـاه .. حتـى شـعرها الغجرى الأسود الفاحم الشبيه بظلمـة الليـل الحالـك فـى ليـالى الشـتاء الداكنة حبسته داخل حجاب أما روحها فقد غلفتهـا بغشـاء رقيـق مـن

الغموض والصمت والحزن الدفين . ورغم كل ذلك لم يستطع ملبسها الكاسى ولا حزنها الدفين أن يخفيا فتنة جسدها ولا جمال روحها .

تأملت صمتها .. خيل إلىّ أنها تتسم بالتزمت والانطواء ثم أعدل عن رأيى وأراها فى غاية التحرر والانطلاق .. أنها دائما هادئة متأملة تمتد نظراتها إلى ما وراء الأفق تبحث عن شيىء ما .. ولكن سرعان ما يرتد إليها طرفها .. بداخلها مخزون هائل من الحزن المكبوت والألم النفسى الذى عادت بهما من بلاد الغربة .. ان الأيام التى قضتها وسط عشيرتها بعد عودتها لم تبدد حزنها ولم تخفف آلامها .. أن ما إنتابها خلال سنوات طوال لن يتم محو أثره فى أيام قلائل .. إن شيئا ما داخل نفسها قد كسر . ما أفظع الألم النفسي ولاسيما على النفوس المرهفة الشفافة .. أما ألام الجسد مهما تفاقمت فعلاجها سهل يسير .. أظن أحيانا أنها سيقت إلى بلاد الغربة رغم أنفها أو بأقل تقدير دون اقتناع كامل .. دلالات الحسرة والندم مرسومة على وجهها رغم محاولاتها إخفاء تلك الدلالات .. ان ابتساماتها تنحدر من بين شفتيها كما تنحدر الدموع .. أن كمية الحزن المترسبة داخل صدرها لو وزعت على العالم كله لكفته .. والغريب أنها رغم كل ذلك تتسم بالشموخ ويتجسد فيها صمود الأهرامات وعظمة ملوك الفراعنة وحضارة السبعة آلاف سنة .. لا أدرى ماهو الرباط الخفى الذى يربط بينها وبين تلك الحضارة العريقة التى يفوح منها عبق التاريخ .. وما هو الشبه بينها وبين الملكة حتشبثوت .

اقتربت منها يوما نتبادل أطراف الحديث نستعيد ذكريات قديمة وأليمة .. هالنى روعة الصورة الملصقة ببطاقة عضوية النادى التى سقطت منها رغما عنها أثناء بحثها عن تليفونها الجوال فى حقيبة يدها .. التقطت البطاقة أتأمل الصورة وأنا أذكر سنوات خلت هى عمر تلك الصورة .. أن ملامح تلك الصورة حذفت من عمرى أكثر من عقدين من الزمان .. واستعادت قوة الشباب وحيويته الى كيانى .. حتى عقلى رجع الى الوراء نفس الحقبة وكاد يقودنى إلى تصرفات صبيانية وربما شبابية ولكنى أفقت فى الوقت المناسب .. حمدت الله على استعادة السنوات التى كان قد حذفها عقلى ورحت أتأمل الصورة .. لمحتها تتأمل صورتها معى وكأنها تراها لأول مرة .. وأخذت تتحسر فى صمت على سنوات عمرها الضائعة .. وانحدرت من عينيها دمعة كبيرة وسارت على خدها فى بطء وسقطت عل الأرض وتوارت كما توارت سنوات العمر .. لم تتمكن من استعادة تلك الدمعة إلى مقلتيها تماما مثل عدم تمكنها من استعادة سنوات عمرها التى ولت .. لاحظت شرودها وتغير سحنتها فأعدت إليها بطاقتها وطلبت منها فى ود أن تجود على بين الحين والحين بإسماعى صوتها أو لقائها لبضع دقائق .. أبدت موافقتها على الفور ووعدتنى .. لم توف بوعدها .. احترمت رغبتها ولم أشأ أن أتطفل عليها وأكرر مطلبي .. فما كان يأتيه المرء فى عقده الثاني من عمره قد يسمو عليه ويترفع عنه فى عقده الرابع أو هذا ما يجب أن يكون .

تكررت وعودها لى ، وتكرر عدم الوفاء بتلك الوعود .. تبين لى افتقاد الثقة .. لم أستطع الجزم أفقدان الثقة فى شخصي أنا أم أن

فقدان الثقة يكمن فى نفسها هى .. صارحتها برأيي فجاء ردها قاسيا وعنيفا خاليا من المودة التي اعهدها بها .. تفوح منه رائحة و بوادر الهجر .. لم أكن أتوقع ردها.. لقد بدت لى كصياد يرمى عصفورا صغيرا بنباله فيوقعه يتضرج فى دمائه متأوها بينما هو يتلذذ بصيده ولا يستشعر آلامه .

حبست آلامي داخلي فأنا لا أقو على بعدها ولاسيما أن عهدي بها إنسانه رقيقة صافية شفافة كقطرات الندى التي تتساقط على براعم الورود فى الصباح فتبعث فيها الحياة .. ومن تهب الحياة لا يمكن أن تكون يوما آلة للقتل والدمار .. ان قلبها المفعم بالحب لا يمكن أن ينضوي على كراهية . . لن أبعد عنها ولن أغضب منها ربما طابت نفسها يوما ومدت يدها الحانية تضمد جراحي التي أدمتها ، وتداوى أوجاعي التي أيقظتها .

جمعتنا الصدفة فأقبلت إلىّ تتحدث معى ، واعترفت أنها تعانى الكثير من الآهات التى تفوق قدرة البشر وتتحمل الأوجاع التى تنوء بها الجبال ، ووعدتنى أنها ستبوح لى بكل ما يعتمل داخل نفسها وما يجثم فوق صدرها ربما خفف ذلك عنها بعض ما تعانيه فأثنيت عليها لثقتها بى..

ووعدتها ببذل قصارى جهدى لإدخال البهجة إلى نفسها ، ومنيت نفسى بقضاء أوقات سعيدة وراودتني أحلام اليقظة التى تنتاب العشاق وحلقت عاليا أنتقل من غصن إلى غصن أقطف الثمار وأمتص الرحيق .

لم تمتد يدها لتضمد جراحي التى أدمتها .. ولم تداوى أوجاعي التى أيقظتها .. ولم تبوح لى بما يعتمل داخل نفسها وما يجثم فوق صدرها .. بل هاجرت مع أسراب الطيور فى موسم التزاوج.. رحلت إلى القطر العربى الشقيق دون أن تودعني أو تمنحنى الفرصة لألقى عليها النظرة الأخيرة.. عكفت جاهداً أرتق ثقوب قلبى التى تنزف موقناً أنها ستعود يوما إلى موطنها الأصلى .